

نهاية الصيف

تعودنا تربيعة الفصول السنوية في عصرنا الحديث . فهى عندنا الآن أربعة فصول في العام : هى الربيع والصيف والخريف والشتاء .

أما في مصر القديمة فقد كانوا يعرفونها ثلاثة فصول ، على حسب مواسم الفيضان والزرع والحصاد ، وكان هذا التقسيم - بالنسبة إلى المصريين - أصح وأضبط في حسابهم من الوجهة الجغرافية ومن الوجهة الجوية ، لأنه يوافق أعمال الزراعة ، ويوافق إحساسهم بالانتقال بين مواسم الاعتدال والبرد والحرارة .

ولا مزية لتقسيم السنة عندنا إلى أربعة فصول ، إلا أنه تقسيم صحيح من الوجهة الفلكية ، وأنه يوحد الكرة الأرضية كلها في نظام واحد .. فلعلة بشير بالعالم المتحد في المصلحة والشعور .

لكننا في الواقع لا نحس بانتهاء الربيع في الثانى والعشرين من شهر يونيو ولا بانتهاء الصيف في الثانى والعشرين من شهر سبتمبر . بل ينتهى الصيف عند الفلكيين ، ولا نزال بعده نتنفس

من الهواء أنفاسه الصيفية ونلمس أخطاء الفلكيين النفسية أو الجسدية ، في كل قطرة من قطرات العرق التي ترفض من الأجسام .

وأيا كان الفارق بين إحساسنا وحساب الفلك ، فقد اتفقنا على أن الصيف قد انتهى منذ أيام ، وأن موسم الاصطياف قد آذن بإغلاق أبوابه ، ولو استفتحتها الكثير من عشاق الاصطياف على حسابهم الخاص لا على حساب العرف ولا على حساب الفلكيين .

وقد أخذنا نسمع الناقدين يشيعون الموسم بما تعودوه من الملاحظة أو ضروب التنديد .

وفي الصيف متسع لكثير من الملاحظات ، وكثير من المؤاخذات ، لأنه يأخذ من طبيعة البحار في كل شيء حتى في العيوب ، ولا شك أن الناقدين على حق حين يعيبون الشطط في أحوال الصيف ، سواء من ناحية الأخلاق أو من ناحية الصحة أو من ناحية الاقتصاد ، أو من ناحية الذوق والآداب . ولكنهم ليسوا على حق في كل شيء ، وليسوا بمنجاة من الخطأ في كل ما يقولون ، ولعل الموسم في حاجة إلى كلمة إنصاف بينه وبين ناقيه . وإذا عرضنا أقوال المنتقدين نفسها على محك الانتقاد فلعلنا نهتدى إلى كلمة الإنصاف المطلوب .

ونحن نصح القول في أحوال المصطافين إذا صححنا القول

في أغراضهم من الاصطياف .
فلماذا يذهبون إلى المصائف بالمتنات وبالألوف ؟ أللصحة ؟
أللراحة ؟ أللرياضة ؟ ألتطبيق قوانين العرف والأخلاق ؟ .
لا نظن أن الاصطياف يقوم على غرض من هذه الأغراض .
ويخيل إلينا أن المصائف تقفر من تسعة أعشار روادها
لو قصرناهم على طلاب الصحة ، أو الراحة ، أو الرياضة ،
أو رعاة العرف والأخلاق .

فالناس - إلا القليل منهم - لا يفكرون في الصحة إلا حين
يضطرون إلى التفكير فيها ، ولا يلتمسون العلاج من متاعبهم
الجسدية إلا إذا أكرهتهم على معالجتها . وليست المصائف أفضل
الأماكن للشفاء والاستشفاء ، ولا الوسائل الطبية فيها أوفر
الوسائل وأدعاها إلى الإقناع والاستدعاء ، وقلما رأينا إنساناً زاد
وزنه في الصيف ، ولو طلب المزيد .

والناس لا يستريحون في المصائف وإن خلوا من الأعمال
والتكاليف . فمنهم من ينام في الأيام الأخرى إلى الضحى
ويستيقظ في المصيف قبل طلوع النهار ، ومنهم من يأوى إلى
فراشه في الساعة العاشرة أيام العمل ، ولكنه يسهر إلى الفجر في
المصيف .

أما الرياضة فلا يجرى على قواعدها أحد من رواد الشاطئ
ولو كان من الرياضيين . ولعل الأصح هنا أن نقول إنهم يمارسون

الحركة ولا يمارسون الرياضة ، لأن أجهل الناس بالرياضة هناك هم الذين يقودون الآخرين في حركاتهم ووثباتهم ، وهم القدوة التي يقتدى بها العارفون بالرياضة وغير العارفين .
ولا نطيل القول عن رعاية العرف والأخلاق . فإنك إذا راقبت الجمهور الغالب من المصطافين بدا لك أن القاعدة هناك هي إلقاء ما يمكن إلقاؤه من قواعد العرف ، ومخالفة ما يمكن مخالفته من قواعد الأخلاق .

فلماذا إذن تقصد المصانف إن لم تقصد للصحة ولا للراحة ولا للرياضة ، ولا لالتزام العرف والآداب العامة ؟
إنها تقصد للطلاقة من القيود .

إنها تقصد لأن حياة الأعمال قيود ، وحياة « الإجازات » إعفاء من القيود .

وفي ذلك شيء من المنطق لا ريب فيه ، فإن الطلاقة هي المعنى الوحيد الذي يقابل معنى التكاليف والقيود ، ومن حقها أن تطلب وأن يحسب لها حساب ، ومن حقها أن تصبغ المصانف بصبغتها لأنها هي الصبغة الملازمة لها قبل كل صبغة ، فلا معابة فيها إلا حين تخرج من حدود الذوق أو تخرج من حدود الاعتدال ، لأن الإسراف معيب في كل شيء وقد يعاب في الفضائل المتفق عليها . لأن الإسراف في العدل قسوة ، والإسراف في الرحمة مرض ، والإسراف في الكرم سفه ،

والإسراف في العقل جمود ، والإسراف في الطلاقة خبال أو فوضى .

فالناقد الذي يعيب الآداب على الشواطئ يجب أن يسلم للطلاقة بحقها قبل أن يعيب ، ويجب أن ينتظر على الشاطئ شيئاً غير الذي ينتظره في موسم الأعمال والتكاليف ، وإلا فاللوم عليه هو في سوء الانتظار ، وفي التسوية بين موسمين لن يتساويا في طبيعة الأشياء ، وهما موسم التكاليف وموسم الإعفاء من التكاليف .

لكن الطلاقة - بعد هذا - نوعان أو صنفان : طلاقة العبيد ، وطلاقة الأحرار .

فالعبد يخرج من قيود العرف كما يخرج السجين من أسواره وحراسه : يخرج منها لأنها قيود سيده الذي وضعها لمصلحته لا لمصالح عبيده . يخرج منها خروج العدو من أسر عدوه ، والأجير المسخر من شقاء التسخير والإذلال .

أما الحر فلن يخرج من قيود العرف هذا الخروج . لأن قيود العرف من وضعه هو وليست من وضع سيد مسيطر عليه ، يسخره لمنفعته ولا يبالي بعد هذه المنفعة بمشيتة لعبده ولا كرامة .

طلاقة العبيد من العرف والحياة طلاقة المحروم المسوخ الذي ليس له عرف ولا حياة . بل يعلم أن العرف المفروض عليه من صنع غيره ، وأن الحياة المفروض عليه مطلوب لمصلحة غيره .

أما طلاقة الحر فهي انتقال من مشيئة إلى مشيئة ومن حالة لها مناسبة إلى حالة لها مناسبة مثلها . وكل ما في الأمر أن الاختلاف بينها اختلاف في المواقيت والمواعيد ، وليس اختلافاً في الطبيعة وسليقة النفس ودخيلة الضمير .

فالعبد ينطلق من سيد .

والحر ينطلق من نفسه لنفسه ، فلا ينسى حقوق نفسه في هذا الانطلاق ، لأن هذه الحقوق هي مصدر العرف والواجب والحياء .

ليس من العقل أن يتحكم العقل في كل كبيرة وصغيرة من شئوننا ، وكل لحظة أو برهة من أوقاتنا ، فإن العقل الذي ينسى دوافع الحياة كل النسيان عقل فيه نسيان كثير ، وفيه خطأ كثير ، وفيه عجز كثير عن تدبير دوافع الحياة .

والعقل كالعين . فنحن نطبق العين في الرقاد ، ونغمض العين إذا كلت أعصاب النظر ، وتتقى الغبار بعض الأحيان بالإغضاء .

وكذلك العقل لا بد له من غمضات كغمضات العيون ، ولا بد للعقل من حرية يحفظها لنفسه في مواجهة عقله ، فضلاً عن سائر العقول .. وإلا فهو في عقله مصاب .

ولكن الفرق عظيم بين فقد النظر من مرض فيه ، وفقد النظر إلى حين من إغضاء مقصود .

والفرق عظيم بين العقل الذى لا يردع صاحبه من عجز فيه ، وبين العقل الذى يرسل العنان لنفسه تارة ويقبضه تارة أخرى ، لأن العنان على كلتا الحالتين فى يديه .

فإذا كانت الطلاقة على المصائف طلاقة عبيد فهى ذميمة منافرة للذوق والأدب ، وهى بغیضة ككل صفة تتمخض عنها طبائع الاستعباد .

وإذا كانت الطلاقة على المصائف طلاقة أحرار ، فهى مطلوبة فى أوقاتها ، كما تطلب التكاليف فى أوقات التكاليف .

بل نقول أكثر من ذلك إنها حق من أوجب الحقوق ، لأن الحقوق تأخذ كما تعطى ، وتطلق كما تقيد ، وتصاحب ساعات الفراغ كما تصاحب ساعات الشغل والجهاد .

ولكننا نستحقها بشفاعة واحدة لا شفاعة غيرها ، وهى قضاء حقوق العمل ، والنهوض بأعباء التكاليف .

وها نحن نودع موسم المصيف .

وها نحن نستقبل موسم الأعمال والتكاليف .

فلا نغلو فى لوم المصطف إذا استوفى نصيبه من طلاقة الأحرار ، ولكننا نرجو أن يستحق الموسم القادم بعمل يشكره له ضميره ، ويشكره له وطنه ، ويليق بالحر الطليق .